1. راسم بدران ... عبقري "صناعة" العمارة

**على هامش دعوة من أكاديمية العمارة بالهند:**
**راسم بدران ... عبقري "صناعة" العمارة**د. وليد أحمد السيد
القدس العربي اللندنية, الخميس 09 شباط 2012


لعل من صحيح القول أن الإبداع ليست له حدود, وقتية زمانية أو مكانية جغرافية. فالمنتج الإبداعي هو تعبير عن طاقة وهبة استودعها الخالق"اللامحدود" في بعض خلقه, وهذه الوديعة وبالضرورة تتجاوز أطر الزمان والمكان. بيد أن هذه المعادلة بين المبدِع وظروف إبداعه المحيطة ليست معادلة متكافئة أو عادلة دائما, أو ذات مخرجات منصفة لثوابتها ومدخلاتها. فللمفارقة, وبرغم هذه الآفاق الرحبة التي يشملها التعبير عن الإبداع والموهبة, إلا أن تفاوت حظوظ المبدعين في نيل ما يستحقونه من تقدير وتكريم قد تتحدد أحيانا ضمن الإطار الزمني أو الجغرافي وإرهاصاتها الضيقة, بما يشي بالطرق الوعرة التي يسلكها المبدعون في حياتهم. إذ, وعلى امتداد التاريخ البشري, تفاوتت حظوظهم من التقدير, في حياتهم أو بعد رحيلهم. لكن "عولمة" اليوم, حملت بين ثناياها حسنات لكسر محددات الجغرافيا والمكان بحيث أضحى صعبا كبت طريق الإبداع وتناقل سيرة المبدعين زمنيا,أو مكانيا, وتحديدها في إطار جغرافي, محدود نسبيا, فالعالم بات يتضاءل أكثر فأكثر,ولم يعد ممكنا خنق المواهب وتقنينها زمنيا أو مكانيا كالسابق.
والملاحظ في تتبع شخصيات المبدعين والعباقرة أنهم ينقسمون لصنفين لا ثالث لهما: الأول صنف منكفئ على ذاته, متكور على نفسه, متمحور حول الذات, أغلق ما حوله, وعلى المستوى الشخصي تبعثرت أوراقه, وحياة من حوله,لقناعات ورؤى خاصة به يرى من حولها عالمه الخاص داخل العالم المتسع. أما الثاني,فصنف يتميز "بكاريزما" عظيمة, وسعة أفق وصدر, هما طريقه لقلوب من حوله,ورضى وبركة يسير بهما وسيرته تسبقه في كل مكان, يحبه من حوله ويكنون له كل تقدير,لشخصه قبل موهبته وعبقريته الفذة. يتميز بقدرة فائقة على "نحت" طريق إبداعه نحتا في محيطه الزماني والمكاني, ولا يلبث أن يتخطاها لحدود"اللامكان" ورحاب "اللازمان" الإبداعي بجهود حثيثة لا تكلّ أو تملّ. وربما سر الإبداع والنجاح يكمن في عشقه وإخلاصه وتفانيه لمهنته التي تجاوزت أبعاد "المعيشة" لتصبح منهج حياة طويلة زاخرة بالعطاء. وليس كل يوم, أو حتى عقد, أو قرن, يجود الزمان بالصنف الثاني من العباقرة والمبدعين, ولكن حين يجود تكون المنحة عظيمة وقيمة, لا يدركها إلا المنصف العاقل, ولا يجحدها إلا الحاسد.
ولم يكن من قبيل الصدفة أن تتجاوز شهرة المعماري الفذ,الدكتور راسم بدران حدود رقعة الأردن الجغرافية ليتسامع العالم بهذا الرجل العبقري والمعماري المصمم, وذلك قبل انتشار وسائل العولمة بعقدين على الأقل منذ السبعينيات. ولذا فلا يمكن نسبة شهرته وصيته لحقبة العولمة, بما يدل على الطاقة المعمارية الهائلة التي بثها من مدينة عمان للعالم قاطبة. من آخر نشاطات بدران الثقافية, هي دعوة من أكاديمية العمارة في مومباي بالهند. وأكاديمية العمارة هي مؤسسة مهمة وجامعة تعنى بفروع الفن والعمارة والموسيقى والمسرح والتصميم الحضري والأدب والسينما, وهي أهم أكاديمية بالهند على غرار جمعية المعماريين بلندن (AA).
يدخل بدران شبه القارة الهندية كعلم يتسامع به نخبة معماريي الهند. على مدى ثلاثة أيام, تنادى معماريو مدينة مومباي بالهند وطلبة العمارة في جامعتها وأكاديميين ومهنيين وأعضاء من نادي خريجي العمارة واحتشدوا للقاء المعماري بدران.في ورشة العمل المكثفة ألقى بدران محاضرتين, أمام جموع حاشدة, جسد في كل منها رؤيته لتجربته المعمارية على مدى أكثر من أربعة عقود ضمن بحثه المتواصل المعطاء عن جدلية الشكل والمضمون في إشكالية الأصالة والمعاصرة والتي كان رائدها وله فضل السبق في طرحها مع مطلع السبعينيات في الأردن بعد عودته من ألمانيا آنذاك. وفي لقاء لاحق قدم بدران محاضرة لطلاب العمارة تبعها بتجربة ميدانية لأحد شوارع مدينة مومباي المزدحمة والرسم بالألوان المائية من الذاكرة لمدة عشرين دقيقة. كما اشتمل اليوم الأخير على جولة ميدانية مع طلبة جمعية المعماريين بالهند تخللها رسم اسكتشات.
هذه الورشة التي نظمتها أكاديمية العمارة بالهند لم تكن الأولى على مستوى استقدام معماريين عالميين, فقد سبقها ورشات مماثلة لدانيال ليبسكند, وباولو سوليري وغيره. وهذا الإهتمام من قبل أكاديمية العمارة باستقدام خبرات معماريين إقليميين وعالميين يعكس حقيقة الهند كقوة إقليمية وعالمية صاعدة بمجالات متعددة, أقلها فنية علمية وأهمها تكنولوجيا تصنيعية واقتصادية, كذلك يعكس جزءا من طبيعة الشعب الهندي المجهولة للكثيرين والتي ربما كرستها صورة نمطية"كلاسيكية" سطحية ومسطحة وساذجة, من احتكاك فئات من الشعب الهندي, والقارة الهندية الفقيرة المكتظة, بطبقات عربية قد لا تعطي الأمة الهندية ما تستحقه من تاريخ وحضارة وريادة في مجالات اقتصادية وسياسية تفوق دولا اقليمية بالمنطقة وتعكس مثابرة ونظاما ديمقراطيا يسعى حثيثا للوقوف بمصاف الدول العظمى.
من تجربة ومعايشة خاصة لأكاديمي وزميل من الهند درس الطب الوقائي بجامعة لندن, أتيحت لي فرصة الإطلاع على جوانب مثيرة في طبيعة الشعب الهندي, يميزها البساطة, والوفاء, والإخلاص, والتفاني في العمل بدرجة مذهلة, وفي نفس الوقت الرغبة والتوق الشديد للتعلم, وفوق ذلك كله الثقافة العالية والأداء الأكاديمي الرفيع. وهذا بطبيعة الحال يشمل الفرد من الطبقة المتوسطة عموما. هذا التباين في شخصية الفرد الهندي (البساطة مع الثقافة) باتت تفقده الكثير من مجتمعات العالم, حيث حل التعقيد بدل البساطة مع الثقافة والتعليم, هذا التباين يجعل بعض الشعوب تنظر لطبيعة الشعب الهندي البسيطة بنظرة أقل مما تستحقها. ومن أبرز مميزات هذا الشعب عموما عشقه للرومانسية, بسبب إملاءات ظروفه المعيشية القاسية, حيث يحب العيش ولو لساعات في عالم يسوده لمسات من العدالة الإجتماعية والسعادة, ولذلك فلا غرو أن تسود "صناعة السينما" بالهند, ويعمل بها أكثر من نصف مليون كفاءة, وتفوق انتاجا وزخما جميع مجاوراتها الإقليمية وحتى العالمية.
مقابل هذه الطبيعة البسيطة للثقافة الهندية, للمرء أن يتخيل توقا فرديا للهندي العادي نحو المثالية, فضلا عن تخطيه لنزق فردي ومناكفات مجتمعية قد تسود في مجتمعات أخرى. ومن هنا فرضت الثقافة في شبه القارة السمراء علاقات إجتماعية تكاد تكون نسيا منسيا في مجتمعات أخرى, منها احترام الكبير وتبجيل"رموزهم" الفكرية والثقافية, وتشمل الدينية. في هذا المحتوى لنا أن نتأمل تحلّق طلبة العمارة حول المعماري العالمي راسم بدران وهو يجود بريشته الفذة بروائع من إبداعاته الفنية وهو يرسم لطلبة العمارة مشاهد من عمران مدينة مومباي وشوارعها.وهذا المشهد لا يمكن وصفه بأروع معانيه إلا لتلميذ عايش "المعلم" راسم بدران لسنوات, حيث خرّج عدة أجيال من المعماريين الشبان في مكتبه بمدينة عمان,والذين طالعوا إبداعات "المعلّم" صباح مساء. مشهد "المعلّم"وهو يجود بريشته وبقلمه الساحر, له دلالات عميقة يصعب وصفها بالكلمات التي قد تقف عاجزة أمام هذه الموهبة الطبيعية النادرة لمعماري قلّ أن يجود الزمان بمثله. ولو كانت شهادة كاتب هذه السطور, كتلميذ "للمعلّم", وحيدة, لربما كانت شهادة مجروحة. لكن هذه الكلمات وتلك الشهادة بحق عبقرية "معلّم" أجيال من المعماريين العرب, تأتي بعد حزمة من التقديرات العالمية, فالإقليمية, وأدناها المحلية. والموهبة, تأتي طبيعية, لها دلالات وتمظهرات فائقة ومذهلة ومتنوعة.فالفرق بين الموهبة العادية, والإحتراف, وبين الموهبة الطبيعية أو (Natural Talent) أن الأخيرة يعبر عنها صاحبها ومالكها بفطرية وعفوية ساحرة تأخذ بالألباب وتفوق الوصف وتترك المشاهد بلاقع حيرانا, وفي حالة أقرب منها للذهول والإعجاب من أي وصف آخر. وكم تحلق تلاميذ بدران لسنوات طويلة حوله في مكتبه الذي تناثرت بعفوية فيه رسومات المشاريع والتصاميم والدراسات, في حوار المعماري العبقري الطويل الصبور الدؤوب مع جدلية العمارة بين الماضي والحاضر, بين الوظيفية والشكل,وبين التراث والمعاصرة, حيث كان له فضل السبق التاريخي في تكريس مفاهيم وأطروحات التوفيق, عمليا, بين التراث والحداثة, في عدد لا يكاد يحصى من المشاريع المعمارية في الأردن والمنطقة والخليج العربي ومسابقات في العالم. وها نحن اليوم نطالع التقاء الشرق بالشرق في شبه القارة الهندية بما سيسطر صفحات من تاريخ هذا المعماري المخضرم الذي تربع على عرش العمارة العربية المعاصرة لعدة عقود. وما بارز "المعلّم"معماريين في مسابقات عالمية إلا بزّهم وتركهم خلفه بمسافات لاهثين, قاصرين عن مجاراة معشار ما أتى به عبقري العمارة العربية وعملاقها الأول راسم بدران.
تأتي هذه الكلمات دافقة متدفقة من وحي سنوات خمس من مطالعة فكر وموهبة "معلّم" قدير, وللمعلم في الماضي والحاضر, مكانة خاصة لا يصلها تلميذ مجدّ, أو مريد, أو منافس, وبخاصة حين يكون "المعلّم" صاحب موهبة فطرية وعلى خلق رفيع. أن يجلس المرء لتلقي العلم, والتدريب على يدي معلم حاذق, هذا لعمري في الزمان كاد أن يندر, ويذوي. وأن تتلقى العلم ممن وهب"موهبة طبيعية" فطرية, يعني أن تفتح عقلك وقلبك لا عينيك فقط. فالعلم يؤتى بالبصر والبصيرة, بالعقل والفؤاد. ولذلك فليس عجبا, ولا عجابا, أو عجيبا, أن يصل الطلب والتحلق حول المعلم لشبه قارة, وأن ترى مشهد إحاطة طلاب العمارة بمعماري فذ وهم يجوبون شارعا في مومباي في تمرين حي مباشر على الرسم الحر وتلقي العمارة عمليا من مصادرها الطبيعية.
من الموافقات أن شعب الهند يعشق "الرمز", وقد أنتجوا رموزا على مدى عقود بعد تحررهم من عبودية الإستعمار, ابتداء من المهاتما(الروح العظيمة) غاندي وجواهرلال نهرو وانتهاء برموز فنية, تربعت على عرش الفن والسينما عندهم لدرجة التأليه. وقد أخبرني زميلي الهندي أن ولعهم"بالرمز", وصل لدرجات غير مسبوقة. فعشقهم للروايات, وعندهم الحكمة الهندية الضاربة في جذور التاريخ, جعل إحدى دور السينما في منتصف السبعينيات تعرض,فيلم "الشعلة" أو (Sholay), لمدة عشرين سنة دون توقف. وهو فيلم صنف كأحد أفضل خمسين فيلما عالميا على مدى التاريخ السينمائي, وتبثه قناة ال(BBC) بين فترة وأخرى. ويحكي صراع أهل قرية فقيرة من قرى الهند مع"جبار", ذلك الخارج عن القانون, العتل الزنيم الذي كانت الأمهات تسكت بكاء أطفالهن ليلا بذكر اسمه, والذي استحيا نساءهم وذبح ابنائهم قبل أن يطارده اثنان من الخارجين على القانون للإمساك به والإقتصاص منه للفقراء. وبسبب هذا الفيلم أصبح بطله (أميتاب بتشان) "أيقونة" السينما الهندية وتربع لليوم لأكثر من أربعة عقود على عرش السينما الهندية بلا منازع. ووصلت شهرته لمتحف الشمع بلندن والعالم قاطبة. يحدثني صديقي أن هذا "الأيقونة" السينمائية قدّم برنامج "من سيربح المليون – النسخة الهندية". وفي موعد بث البرنامج الأسبوعي كانت شوارع الهند قاطبة تخلو من المارة وتكاد تتوقف معالم الحياة في القارة الهندية, لدرجة أن دور السينما تخلو تماما من روادها في تلك الساعة. من أجل ذلك قفز "أيقونة" السينما الهندية "أميتاب باتشان" لمرتبة عالية, وبات يطلق عليه "رجل الصناعة الواحد" أو (One man Industry).
هذه الإنعطافة السريعة, وهذا التسليط للضوء على مثل هذه"الكاريزما" الخيالية, أعادت للذهن مشاهد وذكريات من سيرة"المعلّم" بدران, حيث ينطبق عليه, وباستحقاق وجدارة, توصيف "عبقري صناعة العمارة الواحد" أيما انطباق. وهذا التوصيف يعني قدرة فائقة على تحريك عمل"جبار", يعجز عنه فريق كامل, بشكل منفرد تماما, فهو الموجّه, والدينامو,والمحفز, وعبقري العمل, وسر نجاحه, فاقتران عمل ما باسمه يعني نجاحا منقطع النظير,وبدونه يفقد العمل قيمته وقدرته على تخطي حاجز النجاح ويعود لمصاف الأعمال العادية. تعود بي الذكرى لنهاية الثمانينيات وحتى منتصف التسعينيات لتحط في مكتب"شبيلات بدران", كما كان يسمى آنذاك (دار العمران اليوم) لأستذكر فصولا لا تنتهي من عمل متواصل متلاحق مع المعلم يوميا حيث يجلب كل صباح معماريي المكتب,العشرين أو يزيدون, بالتناوب لمراجعة التصاميم والمشاريع التي يعملون عليها لحل ما استعصى عليهم, وليريهم عجائب التفكير الخلاق المبدع بحلول وتقديم أفكار لا نهاية لها لمشاريع متوسطة وصغيرة, عامة وخاصة, فضلا عن مسابقات عالمية ما فتئ يحصد المركز الأول بها - إلا حين تتواطأ لجان التحكيم القاصرة, المحلية, أو الإقليمية, حسدا,ولأغراض براغماتية, لإفشال نجاح باهر, بمعرفة المتقدم من عظيم ابداعه ورسمه وفكره.وكم وقف فريق التصميم في مكتب راسم أمام لوحات معمارية صفت على الحائط قبل تسليم المسابقة لتطالع بذهول أن التصاميم والرسومات يقف خلفها رجل واحد, رغم أن فريق العمل يتجاوز الستة معماريين. لكن العطاء المغزار والقدرة الهائلة على التنسيق بين الفريق وتوجيه التصميم, والأهم رسم لوحات الفكرة التصميمية التي كانت تفوق أكثر من نصف عدد اللوحات في بعض المسابقات, كانت كلها من إنجاز عبقري واحد يستحق وبجدارة لقب "رجل صناعة واحد".
أكتب هذه السطور, فيما يبدو الماضي هو الحاضر والمستقبل,إذ يستمر العطاء وينتقل من مراحل الفكر الجدلي الى تحليقات خارج إطار المكان والزمان. وتنتقل تركة "العائلة" المبدعة فنيا من الأب الفنان الأستاذ جمال بدران, رحمه الله, وهو الذي رمم منبر صلاح الدين بالقدس, للإبن راسم الذي أبهر الأنظار منذ سني حياته الأولى واظهر قدرات غير عادية على إدراك قواعد الظل والمنظور في رسومات أنجزها بعمر سنوات ست. واليوم يطوف عبقري العمارة العربية المعاصرة, برفقة ابنه, وصديقه, المعماري جمال (الثاني), يطوفان معا آفاقا رحبة من استكشاف هذا العالم الصغير وتقديم ورش عمل لطلبة العمارة في جامعات العالم العربي وما بعدها, حيث ستقوم أكاديمية العمارة بالهند بترتيب ورشة عمل قادمة مكثفة من خمسة أيام لطلبة السنة الرابعة المعماريين وبرفقة الإبن المعماري جمال راسم بدران.
أطال الله في عمر "معلّمنا" وأستاذنا أبو جمال, وجعله نبراسا للعمارة العربية على مدى عقود وأجيال قادمة, حيث قدم ولا يزال الكثير لأمته وحضارته ورفدها بكنوز من إبداعاته التي تحتاج لأجيال لفك أسرارها. هو راسم بدران, عبقري "صناعة العمارة" الواحد!
وليد أحمد السيد
لندن في 31 يناير 2012